هوامش

يثير مسلسل GDR (جمهورية ألمانيا الديمقراطية)، الروسي، جدلاً كبيراً بعد عرضه، بسبب الإسقاطات الكثيرة والمغالطات الواضحة التي تضمّنها، في سرده لأحداث سياسية وتاريخية

من المسلسل (IMDb)

«جمهورية ألمانيا الديمقراطية»

فلاديمير بوتين بطلاً على الشاشة

سامر إلياس

بعد بدء عرضه في روسيا، وصف النقاد الروس ووسائل الإعلام، مسلسل GDR (جمهورية ألمانيا الديمقراطية) المكون من 14 حلقة، بأنه العمل الفني «الأكبر والأجدر لهذا العام». ورغم أن الوصف المسبق للمسلسل الذي يروي أحداثاً من نشاط وصراعات أجهزة المخابرات السوفييتية والأميركية والألمانية في ألمانيا الشرقية السابقة عام 1989، يشير إلى أنّه «عمل خيالي مبنيّ على أحداث حقيقية»، إلا أن أحداثه تشطح بعيداً عن الواقع والتاريخ. كذلك لا يبدو هذا الخيال فنياً بقدر ما يبدو أيديولوجياً وعقائدياً، موجهاً نحو إظهار رجل المخابرات السوفييتي على أنه الوحيد الذي ظلّ وفياً للوطن، في ظل تعاقب الحكام والسياسيين الخونة منهم والسذج والمخدوعين والمخادعين. المسلسل رغم تقييمه العالي من الناحية التقنية والفنية، وإطراء النقاد على حبكته وأسلوب تصويره، إلا أنه يتعمد تشويه صورة الغرب وإظهار كل من لا يروقون النخبَ السياسية الروسية بمظهر الخونة والسذج والفاسدين. وتكمن رسالته الرئيسية في أن «ضباط المخابرات الروس، هم من دافع ويدافع عن مصالح الوطن»، في تلميح إلى شخصية الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، الذي خدم ضابطاً في الـ«كي جي بي» في ألمانيا الشرقية في الحقبة التي يتناولها المسلسل. وفي وصف العمل الدرامي، يقول القائمون عليه: «برلين أواخر الثمانينيات. المدينة غارقة في المسيرات والاحتجاجات، والناس يطالبون بتوحيد ألمانيا الفيدرالية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية. عندما يصبح من الواضح أن سقوط جدار برلين أمر لا مفر منه، تدخل أجهزة المخابرات في مختلف البلدان في لعبة معقدة ومتعددة الخطوات، والهدف منها الاستحواذ على أرشيف وزارة أمن الدولة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. تحتوي هذه الوثائق، القادرة على تغيير مجرى التاريخ وتدمير مئات الآلاف من الأرواح، على ملفات عن العملاء والسياسيين العالميين والعديد من الأسرار الأخرى. يصبح ضابط المخابرات السوفييتي ألكسندر نيتشايف إحدى الشخصيات المركزية في العملية الدولية».

ورغم أن العمل الفني مصوّر بشكل احترافي للغاية، وحبكته تجذب المشاهد بديناميكيتها ولا تتركه حتى النهاية، إلا أنه من الناحية التاريخية والفكرية يضمّ كمّاً هائلاً من التحويرات والتناقضات، وتنقسم الشخصيات فيه إلى أبطال مطلقين، وسياسيين سذج لا يدركون أنهم يُخدعون، وأعداء بلا شرف ولا رحمة.

وفي محاولة منتجي المسلسل تكييفه مع المسار الأيديولوجي المختار، تظهر فيه العديد من الشخصيات والأحداث التاريخية بشكل مضحك واستهزائي. كذلك إنّ رغبة المؤلفين في إضفاء المثالية على بعض الأبطال وشيطنة آخرين، أدت ببساطة إلى كسر الصورة الحقيقية للعالم كما كان، واستبدال التاريخ الفعلي بأحداث خيالية، رغم أنها جذابة ورومانسية، إلا أنه لا يمكن القول إنها مقتبسة من الواقع.

على سبيل المثال، حُورت قصة الطيار الألماني ماتياس روست الذي حلق من بلاده على متن طائرة صغيرة، ودخل أجواء الاتحاد السوفييتي، وحطّ بطائرته في قلب موسكو عند جدران الكرملين في عام 1987 في ما وصفه بأنه «رسالة سلام»، إلا أنه في المسلسل قُدّم عميلاً غربياً، كان يحمل على متن طائرته الصغيرة حقيبة فيها سلاح بيولوجي. وفي مشهد آخر أثار سخرية المشاهدين، لا يجد الأميركيون والألمان الشرقيون مكاناً أكثر ملاءمة لتبادل المعلومات والعناصر السرية غير موسكو، البعيدة آلاف الكيلومترات عن مكان وجودهم. ويسلط المسلسل الضوء على رهينة، هي زوجة البطل الرئيسي للمسلسل، ضابط المخابرات السوفييتي ألكسندر نيتشايف. وعلى الرغم من أن العلاقات بينهما فاترة إلى حد ما، إلا أنه بكل بطولة ونبالة، يفعل المستحيل لإنقاذها. وفي العمل ، يبدو نيتشايف وسيماً مفتول العضلات، وهو مغرم بالحسناء إنغريد من «جماعة الجيش الأحمر» اليسارية المسلحة بألمانيا الغربية.

ومن الواضح للغاية أن صنّاع المسلسل سعوا لتصوير «فلاديمير بوتين» ذلك العصر بطلاً، أكثر برودة من جيمس بوند نفسه. ولا تتوقف الإسقاطات على شخصية بوتين في دور البطولة، ففي بعض الأحيان تصبح هذه الصورة جماعية تعمَّم على كل ضباط «كي جي بي». وفي أحد المشاهد، يطلق كونستانتينوف، زميل نيتشايف، النار من مسدسه في الهواء في باحة مؤسسة سوفييتية في دريسدن، محاولاً إيقاف حشد من المتظاهرين. وهذا المشهد اقتباس مباشر تماماً من مذكرات فلاديمير بوتين، تحدث عنه بوتين نفسه في فيلم الصحافي أندريه كوندراشوف «بوتين»، الذي نشر في مارس 2018. وحينها في عام 1989، خرج بوتين ضابط الكي جي بي حينذاك إلى حشد من المتظاهرين، ومنعهم من اقتحام مبنى سوفييتي في مدينة دريسدن الألمانية.

باختصار

يتعمّد المسلسل تشويه صورة الغرب وإظهار كل من لا يروق للنخب السياسية الروسية بمظهر الخونة والسذج والفاسدين

■■■

يتضمّن من الناحية التاريخية والفكرية كمّاً هائلاً من التحويرات والتناقضات، وتنقسم الشخصيات فيه إلى أبطال مطلقين، وأعداء بلا شرف ولا رحمة

■■■

لا تتوقف الإسقاطات على شخصية بوتين في دور البطولة، ففي بعض الأحيان تصبح هذه الصورة جماعية تعمَّم على كلّ ضباط «كي جي بي»

وأخيراً

الراحلون في 15 أيار

خطيب بدلة

بالمصادفة وحدها؛ رحل ثلاثة من المبدعين السوريين المتميزين، في يوم واحد: 15 أيار / مايو... سعد الله ونوس (1941- 1997)، كاتب مسرحي كان يكبُر باستمرار، لا بمهارته في إبداع نصٍّ مسرحي متقن وحسب، بل وبأفكاره المتجدّدة، وإصراره على الهرب من علم مستقر، يعتبره الفيلسوفُ العربي «النِفّري» جهلاً مستقراً. كان سعد الله محسوباً على التيار الماركسي، ولكنه الأكثر شجاعة في التحذير من الجدانوفية، أي مبادئ جدانوف، وزير الإعلام السوفييتي الستاليني الذي أرسى دعائم الالتزام بالحزب والسلطة والقائد، ومحاربة المجدّدين ونعتهم بأنهم: تحريفيون، تلفيقيون، توفيقيون... إلخ، ولعل أبرز ما أراده سعد الله أن يكون الشعب شريكاً في المسرح، وفي سياسة البلد، وهو أول من تجرأ بالإشارة إلى هزيمة حزيران 1967، بدليل أن مسرحيته «حفلة سمر من أجل 5 حزيران» مُنِعَ عرضها أكثر من مرة.

كان من الطبيعي أن يحتفي سعد الله بالظهور المدوّي للمخرج المسرحي فواز الساجر (1948- 1988) على الساحة السورية، وأن يشكّلا ثنائياً إبداعياً مسرحياً اتسم بالمغامرة، والتجريب، والتحديث، والتخلّي عن «الخطابة» بوصفها أسلوباً لغوياً ديماغوجياً مضلّلاً. قدما معاً «يوميات مجنون» عن نص لنيقولاي غوغول، و«رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة» التي اقتبسها سعد الله عن مسرحية للكاتب الألماني بيتر فايس، وقد تبنيا، في بداياتهما، مذهب برتولد بريخت القائم على إزالة جميع أنواع الحواجز بين المسرح والجمهور، وفي المرحلة الثانية، اعتمد الساجر في تعامله مع الممثلين منهج ستانسلافسكي الروسي، الذي يرى من واجب الممثل أنْ يدرس الحياةَ الداخلية للشخصية التي سيلعب دورها، ويقدّمها كما لو أنها حية. وبحسب ما تروي الممثلة أمل حويجة التي عملت معه في مسرحية «سكان الكهف» المأخوذة عن نص لوليام سارويان، أواخر سنة 1987، أن فوّاز كان يطالب الممثل بفهم الشخصية التي سيمثلها، ظروفِها، وخيالاتها، وذاكرتها الانفعالية، وأن تظهر انعكاساتها عليه خلال العرض، جسدياً ونفسياً. وكان يُجري للطلاب، في دروس المعهد العالي للفنون المسرحية، اختبارات طويلة، فيقول، مثلاً: تخيّل نفسك ماشياً في برية، والشمس ساطعة، والعصافير تزقزق، وفجأة ضللتَ طريقك، ووجدتَ نفسك في صحراء، والسماء غامت، وضعفت الرؤية، وشعرت بالبرد، وهبت نسائم هواء، ونزل رذاذ خفيف، ثم اشتدت الرياح، انطلقت زوبعة، الرياح أخذت تصفر، وتقتلع الأشجار، وبعد قليل، بدأت الأمور تهدأ، والرؤية تتحسن..

ما أنجزه سعد الله ونوس وفواز الساجر، في المحصلة، أنهما تمكّنا من جذب أعداد كبيرة من الناس إلى مسرح جديد، لا هو بالتجاري، ولا بالخطابي التنفيسي، وصار لهذا المسرح شبّاك تذاكر خاص به... والأمر نفسه حصل مع ظهور فيلم رسائل شفهية، سنة 1991، للمخرج عبد اللطيف عبد الحميد (1954-2024)، من إنتاج المؤسّسة العامة للسينما التي كانت تنتج فيلماً واحداً في السنة، تعرضه بضعة أيام في صالة الكندي، ثم ترفعه، ولا يظهر إلا في المهرجانات الدولية، بينما اكتسح هذا الفيلم الموقف، و«كسّر الدنيا»، كما يقولون، وأصبح لسينما الكندي زوار، يمكن أن تقطع متعة الفرجة لديهم تعليقات أشخاص يحضرون الفيلم نفسه للمرة الخامسة أو السادسة!

> لم يسلم سعد الله ونوس وفواز الساجر وعبد اللطيف عبد الحميد، كما العادة في سورية، من نقد، وتشكيك، واتهامات

مجموعة من المفاجآت، استطاع عبد اللطيف تحقيقها في الفيلم، أولها تقديم الحوار بلهجة أهل جبال الساحل (العلويين)، وقد بدأ هذه التجربة قبله أسامة محمد في فيلم «نجوم النهار»، وثانيها تلك الكوميديا التي تصدر عن أناس كل شيء في حياتهم جاد، بمعنى أنها كوميديا شعبية عفوية، وثالثها إسناد الدور الرئيسي في الفيلم لفنانٍ لم يكن معروفاً وقتئذ، فايز قزق الذي اشتهر فيما بعدُ بأداء الأدوار المركبة، الصعبة.

لم يسلم أيٌّ من المبدعين الثلاثة، كما هي العادة في سورية، من نقد، وتشكيك، واتهامات، أرى، وأنا أخوكم، من الأفضل تجنّب الخوض فيها، والتركيز على الشيء المهم في المسألة: الإبداع.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**